على عهد الامير

# لماذا ؟

## رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

ولقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

### الفصل التاسع

### مصاب جديد (تابع)

امّا فرحات فكان اشدّ حيرة تجاه موقف ابن مولاه ، يفتش عن تعبير يقطع به ذاك السكوت فلا يجد ، ويبحث عن كلمة يخفّف بها تلك اللوعة فلا يتوفق . يهمّ بان يحدّثه عن الانتصارات الباهرة في المعارك الاخيرة فيتراجع قائلاً وما نفع تلك الانتصارات بعد ان قُتل الامير جهجاه ؟ ويجرّب ان يتكلّم عن بدور وتجلّدها فينتبه الى ان ذاك الموضوع يجرّ الى التفكر بحالة الست سعدى ومرضها المقلق ؟ ويوشك ان يتبسّط في اخبار دير القمر وما صارت اليه بعد رجوع الامير ثم يهاب ان يفتح جرحاً بليغاً في قلب غانم اذا ما قرب الموضوع من قصر الشربين .

وما زال الاثنان في تلك الحالة من الجمود والصمت ، يهاب فرحات ان يقول ما يحزن ابن مولاه ، ويهاب هذا ان يسأل فرحات فيسمع ما يضاعف آلامه ؟ حتى طرق الباب فجأة ، فاختلج غانم وقام لفتحه ، واذا به يرى احد اغوات السراي . فسلّم عليه بكل لطف وقال :

— مولانا الباشا بحاجة اليك !

— سمعاً وطاعة ! انتظرني ريثما البس عباءتي واسير معك !

ثم اشار الى مقعد فجلس عليه الآغا . وتحوّل نحو صندوقه فاخرج عباءة بيضاء مزركشة ، وكوفية حريرية ، وعقالا مذهباً . ثم تناول خيزرانة رفيعة ، واقبل نحو الباب بعد ان قال لفرحات بلهجة مطمئنة .

— لا شكّ ان سعادة الباشا يطلبني ليكلمني عن الامير ، ويهنئني بانتصاره . فالبث هنا حتى اعود ، فتحمل الى الامير تهانئ الباشا واوامره الاخيرة .

ثم التفت الى الاغا ، وقال :

— هلمّ بنا كي لا نطيل انتظار سعادة الباشا .

فخرجا ووجه غانم يطفح بشراً ، وخطواته تحمله سروراً ، حتى كان من ينظره لا يشكّ في انه اسعد اهل الارض ، وابعدهم عن الهموم !

فذهل فرحات لهذا الانقلاب السريع ، وكبر ابن مولاه في عينيه ، فاخذ يعجب بسعة صدره ، ورباطة جأشه ، وصبره على احتمال الرزايا ، ويقدّر له مستقبلاً باهراً في عالم السياسة والادارة ، راجياً ان يخلف جدّه في رئاسة الحزب ، ويكون من ادنى مقرّبي الامير بشير .

* * *

اذن الجزّار لغانم بالدخول فتخطى صفوف العساكر بقدم ثابتة ، ونظر شامخ ، حتى بلغ المجلس ، فاستقبله الباشا باشّاً ، واشار اليه متلطفاً فجلس . ثم اقبل عليه مبتسماً وقال :

— لقد سُرونا كلّ السرور بفوز ولدنا الامير بشير ! وهذا ما كنّا نقدّره له لما نعرفه من حسن ادارته ، وحزمه وتعوّده تذليل العقبات ، والانتصار على الصعوبات . واننا نكلفك بان تبلغه تهانينا .

فحنى غانم رأسه . ثم تقدّم من الجزّار ، فقبّل يده ، وقال :

— الشكر لكم يا مولاي على كل حال . وما الامير بشير الا فرد من جنودكم المظفّرة . نال النصر بمساعدتكم ، وفتح بلاد العدوّ باسمكم الكريم . وكيف لا ينتصر ، وخاطركم مشروح عليه ، وكيف لا ينخذل الاعداء وغضبكم حالّ عليهم .

فعلت شفتي الجزّار ابتسامة الغبطة والهناء ، واشار على غانم بالعودة الى

مركزه ، وتابع :

— ومما سرّني ايضاً انه عرف حق الجيش الذي ارسلته لمساعدته . فلم يماطل بتقديم «العلاين» المقرّرة للقواد والجنود ، واعطاهم فوق اللازم فكانوا مسرورين منه غاية السرور . وقد ارسل يعدني بتقديم قسم من الميري في اقرب وقت .

— كلّ هذا يدلّكم يا مولاي على مبلغ امانة الامير بشير لكم ، وتعلّقه بشخصكم الكريم !

— لم يكن عندنا ادنى شكّ بهذا الامر . واما انت فنعيدك ان شاء الله ، الى بلدك قريباً ، محفوفاً بعنايتنا ، كما كنت دائماً في هذا السراي . أليس كذلك ؟ قل : هل تضجّرت من امر ما ؟ هل نالك احد باذىً ؟ هل عاكس احد ارادتك ؟ لا علم لي بشيء من ذلك ! قل ! وان يكن نالك مكروه اثناء اقامتك في قصري ، فلا يمكنك ان تلومني لانك لم ترفع اليّ شكواك !

— لا يا مولاي ! فليس ما اشكو منه . بل بالعكس فاني كنت ولا ازال مشمولاً بعنايتكم السامية ، محفوفاً بنظركم العالي . وليس لي ما اتمناه سوى ان اقضي العمر مرموقاً بعطفكم سائرًا في طاعتكم ، مقيماً حيث شاءت ارادتكم المطاعة .

فهزّ الجزّار رأسه موافقاً ، ولها بلحيته قليلاً ، وقال :

— اننا سنذكر دائماً هذه الطاعة ، ولا نضيع فرصة لاسعادك . فنسمح لك منذ اليوم ان تقيم خارج القلعة . في الجانح الايمن من سراي مصطفى آغا الذي سيوكل بخدمتك ثلاثة من خصيانه يقومون بكل ما تريده من المرافق والحوائج .

ثم التفت الى مصطفى آغا فحنى هذا رأسه علامة الخضوع وقال :

— الامر لمولاي !

وادار الجزّار رأسه الى ناحية كاتبه عبدالله آغا وتابع ، موجهاً الكلام الى غانم :

— وسيكتب لك عبدالله آغا وثيقة بامضائنا تخوّلك الحق المطلق في الذهاب حيث شئت ضمن حدود المدينة . فتدخل المحلّات التي يعنّ على بالك ان

تدخلها ، وتجول في الاسواق التي ترغب الجولان فيها ، وتطوف الخانات التي تحبّ الطواف بها ، فتحادث من تشاء من تجّار الافرنج والعرب ، ولا مانع يمنعك ، ولا رقيب عليك . ثم انت حرٌّ في منزلك ، لا احد يسألك عمّا تصنع فيه ، ولا احد يدخل عليك الّا باذنك.

فكتب عبدالله اغا الوثيقة بكل ما تقدّم . فوقّع عليها الجزّار ، ثم ناولها غانم . فاخذها هذا واقفاً ، وانحنى فقبّل يد الجزّار شاكراً . ثم استأذنه بالذهاب ، فاذن له ، وارسل معه مصطفى آغا الخدم الثلاثة ينقلون متاعه من غرفته الصغيرة في القلعة الى منزله الجديد.

* * *

كان فرحات يتطلّع من نافذة غرفة غانم على الطريق المؤدّي الى مجلس الجزّار ، متوقعاً عودة مولاه بين الآونة والاخرى . فبصر به راجعاً ووراءه رجال ثلاثة ، فظنّ شرّاً واخذ يفكّر فيما عسى تكون عاقبة الامر ، مستعيداً في مخيّلته ما قد يكون هيّج غضب الجزّار على غانم ، مستنتجاً اسوأ النتائج . حتى وصل غانم ، فحيّاه فرحات مضطرباً واشار بطرفه مستفهماً عن مقصد هؤلاء الرجال . فابتسم وقال:

— هؤلاء رجالي ! اتوا ينقلون امتعتي الى المنزل الجديد . فهلمّ بنا نتفقّده.

وبعد ان اشار الى اثنين من الخصيان بنقل الامتعة شيئاً فشيئاً ، سار وراءه الثالث الى سراي مصطفى آغا ، وفرحات يرافقه ولم تنجلِ له الحقيقة بعد . فاخذ غانم يشرح له ما كان من سرور الجزّار بانتصار الامير بشير ، وخصوصاً بتوقّع قبض اموال الميري في القريب العاجل ، ويصف له كيف استقبله بالترحاب ، وكيف انعم عليه بالمنزل الجديد وبالحريّة المطلقة بان يصنع كل ما يريد ويذهب حيث يشاء ضمن حدود المدينة.

فسُرّ فرحات لسرور مولاه ، ورجا ان تكون هذه الحرية دافعة به الى التأسي والسلوان.

وبعد ان تمّ نقل الامتعة ، ورتّبت . جلس الاثنان فتناولا الطعام معاً . ثم قام غانم فانشأ تحريراً للامير بشير يخبره بكل ما حدث . وتحريراً لبدور

يطمئنها الى حالته ، ويخبرها بما ناله من الحرية ، داعياً اياها الى الصبر ، والتسليم في كل شيء ، لمشيئته تعالى.

وناول التحريرين فرحات ، فحفظهما في عبه ، الى ان كان السحر فهب من نومه ، وشد طماقاته ، ولف زواداته بمنديل وربطه الى ظهره ، ثم تناول عصاه الضخمة ، وودع مولاه على ان يعود في الاسبوع القادم ، ان شاء الله.

## الفصل العاشر

### على غير ميعاد

تغير منزل غانم ، فتغير مقامه في نظر موظفي بلاط عكا . فمن رجل غريب أخذ رهينة ، لا تأثير له ولا قيمة ، يعيش منفرداً في غرفة حقيرة من مؤخر القلعة ، انتقل بسرعة غريبة الى صديق محالف يُقيم في جانح مهم من سراي كبير ، يحبه الجزار ويدعوه الى مجلسه ، فيقربه منه ، ويتفقد احواله. هذا ما كان يفكر به رجال البلاط اذ كان يمر غانم امامهم ، فينحنون لمديه مسلمين ، بعد ان كانوا لا يأبهون له اذا حياهم . هو الدهر يدور فيرفع من يشاء ويضع من يشاء ، وقد لا يكون لهؤلاء ولا لأولئك ارادة في ما يُغدقه عليهم من النعم او في ما ينزله بهم من النوائب. ولم يكن سبب دورة الدهر هذه التي رفعت غانم الى تلك الدرجة سوى حرص الجزار ونهمه الى المال ، وما ارسله اليه الامير بشير من الوعود الخلابة.

اما غانم نفسه فلم يكن ليشعر بتغير حالته ، ولا لينتبه لجاهير المسلمين عليه حال مروره في ساحات القلعة . ليس عن صلف او استخفاف ، بل لفرط ما كان يشغل فكره من احوال الوطن ومن فيه.

لقد سُر دون شك بتغيير مقره ، اذ استبدل بتلك الغرفة الحقيرة ، منزلاً فخماً ، واصبح له من يقضي حاجاته ويقوم بخدمته ، وصار يمكنه الذهاب حيث شاء ، دون رقيب يحدجه ببصره ، ولا حارس يمنعه الدخول الى المحل

الفلاني . لقد سرّ ايضاً بما رافق هذا التغيير من اعتراف الموظفين بقدره ، فكان يعجب بصغر عقولهم ، ويتفكّه بما يبدونه امامه من مظاهر الاحترام والاجلال . كل ذلك لأنهم سمعوا الجزّار يخاطبه برقّة ولطف ، وهم لم يتعوّدوا منه الّا الجفاء والغلظة ؛ ورأوه يهتم به ، وهم لم يعرفوا منهُ الّا الاستخفاف وعدم المبالاة .

على ان هذا السرور لم يكن ليسلك على غانم شعوره ، بل لم يكن ليعزّيه عن مصائبه الماضية ولا عمّا يخشاه من المستقبل الغامض . فكان في منزله الجديد ، هو في غرفته القديمة ، لا يرخي الليل سدوله حتى يرخي الحنان لعبراته فيجمع بين ظلمة الدجى ، وظلمة الدموع ، وظلمة الافكار السوداء تنتاب مخيّلته . كان يبكي على امه التي لم يعرفها ، وعلى ابيه غانم الذي لا يتخيّله ، وعلى جدّه الشيخ قعدان الذي لم يمكنه ان يغمض عينيه ، وعلى عمه المير جهجاه الذي لم يودّعه . ويبكي ايضاً على الست سعدى في حياتها ليأسه من رؤيتها . ويبكي على بدور التي طالما انعشت آماله الميتة ، ونفخت في مستقبله الاسود روح حياة ورجاء ... ثم يبكي على نفسه وحيداً في بلاد غريبة .

كثيراً ما كان يقضي ساعات طويلة من الليل على نافذة غرفته يسرّح ابصاره في السماء الصافية الى البحر الواسع ، فيرى النجوم تتبرجج في قبتها مرقصة خيالاتها فوق الموج المتمايل ، فيناجي ارواح اعزّائه ، حتى يخالها هائمة في الفضاء الفسيح ، مشعشعة بالانوار العلوية ترقبه من خروق الكواكب ، فتشدّد خطاه في حياته وتبسم له في مآتيه ، فيتشجّع ، ويسكن ، ريثما تهوي النجوم واحدةً واحدةً وراء الافق البعيد ، فتغور معها آماله واحداً واحداً في بحر اليأس المضطرب .

وكان ، اذا اصبح ، وخاف ان يكتشف الغرباء نجواه الليلية في عينيه الذابلتين ، ووجهه الذاوي ، ونظره التائه ، تجلّد وغسل وجهه ، وخرج متكلّفاً الطمأنينة جائلاً في انحاء المدينة ، علّه يروّح النفس من بعض ما يُلمّ بها . فكان يهيم من قيساريات الحرير الى اسواق المواسم ، الى خانات الافرنج ،

يتوقف عند كل ما يلفت نظره ، ويحدث كل من يراه غريباً مثله حتى اصبح له معارف عديدون بين الافرنج ينتظرون مروره كل يوم ، فيكرمون وفادته ، ويحادثونه بعربيتهم الضيقة ، ولفظهم المفكك . فاطمأن الى صداقتهم ، وعرفوا انه مسيحيّ لبناني ، فكانوا كثيراً ما يكلمونه عن دينه الذي هو دينهم ، وعن وطنه الذي يحبونه . فيقبل كلامهم في قلبه ، ويضع بلسماً لطيفاً على جراحه المتعددة ، فيُعيد الكرة ويعيدون البلسم ، حتى تمكنت الصداقة بين الفريقين واصبحت زيارته لخان الافرنج من الواجبات اليومية .

وكان الجزّار ، اثناء ذلك ، لا يفتأ يدعوه الى ديوانه ، فيكثر له من ادلّة الاكرام ، ويُعيد على مسامعه كلمات عذبة تدلّ على رضاه عن اعمال الامير بشير ، وعلى عطفه على بلاده واهتمامه بتقدمها وفلاحها . فكان غانم يشكره ويدعو له بطول البقاء ودوام العزّ ، ثم يعجب بنفسه من تأثير المال في هذا الطاغية وهو لم يقبضه بعد ، فكيف به اذا قبضه !

امّا مصطفى آغا صاحب السراي ، فكان غانم ينفر منه في اول الامر لغير ما سبب ، سوى انه راعه ظاهره ، فهابه . وفعلاً كان ظاهره مما لا يدفع الى الطمأنينة . قامةٌ فوق الربعة قليلاً ، وجسمٌ مضطرب الحدود لا يكاد يميز الناظر طوله من عرضه ، بدا منه بطنٌ كبير مترهل يعلوه صدر ضخم ، وكتفان غارقتان ، يتدلى منهما ذراعان مفرطا الطول ، ينتهيان براحتين مبسوطتين واصابع مربعة الاطراف لا تدلّ على شيء من دقة الحسّ او لطف الذوق . امّا الراس فكان مربعاً ضخماً ، ضاق جبينه ، وتقلطح مؤخره ، وتباعدت عيناه السوداوان الصغيرتان ، يفصل بينهما انف ضخم طويل الارنبة ، ويخيم عليهما حاجبان كثيفان ، يكادان يتصلان بالشاربين وقد استطالا وتشعث طرفاهما فعلقا باطراف لحية كثة تُركت للطبيعة تأخذ منها ما تشاء وتدع ما تشاء . وقد انفرجت عن فم كبير وشفتين سميكتين تدلّت سفلاهما مقلوبةً قليلاً ، وتقلصت العليا عن اسنان كبيرة .

كل ذلك لم يكن يدفع الى الطمأنينة ، فهابه غانم حتى الحذر . ولكن ما هو ان حادثه قليلاً حتى عرف ان وراء ذاك القناع الشنيع ، قلباً طيباً ، ولطفاً

فطرياً ، وظرفاً جميلاً ، وحسن معاشرة جديرة بالاعتبار . وهكذا كثيراً ما يكذّب الباطن تأثير الظاهر ، وكثيراً ما لا يكون الوجه مرآة النفس.

ولم يمضِ القليل حتى اصبح مصطفى آغا من اخلص اصدقاء غانم يجتمعان المرّات في النهار ، ويقضيان الليالي معاً. فيأخذ الاغا يسرد النكات الظريفة ، والنوادر المفكهة ، والحكايات اللطيفة مما حدث له او لاصدقائه او للجزّار ، وغايته ان يسلي غانماً وينسيه بعض همومه . فغدا غانم يأنس الى معاشرة صديقه الجديد ويتفكه باحاديثه اذ كان يمثل القصّة التي يرويها بصوته ورأسه وعينيه ، ويديه ، وبطنه ، وكل جسمه . فيتركها اثراً حياً لا ينساها من يسمعها المرّة الواحدة ، ولا يملّ من سماعها مرّات.

واحب مصطفى اغا غانماً حباً ابوياً ، خصوصاً بعد ان عرف ما المّ به من الرزايا ، فلم يكن يتركه وحده الّا في الليل ، وبعد ان يتأكد بانه نام دون ان يترسل للهواجس المؤلمة . وكان يسهر على كل احتياجاته ، فلا يشعر غانم بالحاجة الى امر ما حتى يراه في غرفته.وكان كثيراً ما يدعوه الى تناول الطعام على مائدته فيدخله بيته ، ويستقبله بكل بساطة وارتياح.

* * *

مرّ زمن على غانم وهو في تلك الحال من دعة العيش واساليب الراحة التامّة ، لا يقلق خاطره سوى انتظار فرحات وما يحمله من الاخبار ، ولا يكدّر صفاء حياته سوى تلك الهواجس التي لم تكن تفارقه على الرغم من مظاهر السكون والطمأنينة ، هواجس سوداء مزعجة كانت تحوم به حول قصر بعذران فتمثّل له الرزايا المختلفة على مختلف انواعها حتى كان يخشى من متابعتها ، فيطردها... ولكن الى حين.

وكانت تلك الهواجس ، كلما طال غياب فرحات ، تجتمع وتجمهرت واكفهرّت فازعجت المسكين في نهاره ، واقضّت مضجعه في ليله. فلبث حائراً تائهاً ينتظر تارةً رجوع خادمه الامين بايّ خبر كان ... علّه يتخلص من تلك الحالة القلقة التي لا تستقرّ على شيء ، وهي اشدّ تأثيراً من وقع المصيبة يعرفها الانسان ، فيضطرب لها مدّةً ثم يسكن الى الحقيقة الواقعية ؛ وطوراً يخشى

من رجوعه مفضّلاً ذاك الموقف القلق ، على تحقق مصيبة جديدة . على ان الاقدار بيد الله يديرها كيف شاء .

بينا كان غانم ذات مساء مستنداً الى نافذته وقد فارقه مصطفى اغا ، فاستسلم الى قنوطه ، حتى تاه بصره على تلك البيداء المتاوجة ، واصبح لا يفكر في شيء محدود ، دخل عليه احد خدمه ببطء وقال بصوت خافت :

— على الباب فارسان يودّان محادثتك يا سيدي !

فانتبه غانم من ذهوله ، وفرك عينيه ، وقال :

— أزّ المسرجة ، وادخلهما .

ظهر فرحات على عتبة الباب يقود بيده الفارس الآخر . وكان غانم ينتظرهما واقفاً وقد ضغط بيده اليسرى على قلبه ليخفّف نبضاته . وما هو ان لمع نور المسرجة على وجهيهما ، حتى ادرك المسكين هول المصيبة الجديدة ، فتراخت اعصابه وهوى على الديوان . فاسرع فرحات ونضح على جبينه الماء من ابريق كان في النافذة ، بينا كانت بدور تفرك يديه . فافاق مذعوراً ، واجال نظراً تائهاً في الوجهين ، ثم اغمض جفنيه واجهش الثلاثة بالبكاء .

وكان احد الخدم ، لما رأى ذاك المشهد المحزن ، اسرع الى مصطفى آغا وهو يعرفه صديق غانم الصدوق ، فاخبره بالامر . فقام هذا عن العشاء وهرول الى منزل غانم مستفهماً عما جرى . فتلقاه بجفن دامع ، ونَفَس لاهث ، وقال :

— مصيبة جديدة يا مصطفى آغا ! هذه خطيبتي تحمل اليّ نعي انها امرأة عمي .

فحزن الآغا لهذا المشهد المؤثر ، وبعد ان رفع عينيه الى السماء قال :

— خفّف عنك يا بنيّ وكفكف دموعك ، فلا مردّ لحكمه تعالى ، والمصائب تحكّ الرجال ، فكن رجلاً . واعلم ان الرزايا متى توالت تولّت ، والله يجرّب خائفيه فعسى تكون هذه المصيبة آخر تجاربه . ولا تنسَ أنا لله وانا اليه راجعون .

وبعد فترة سكوت تقدّم مصطفى آغا من غانم وقال :

— لا شكّ بان البيدة تعبة ، وكذلك رفيقها ، وانت لم تتناول عشاءك بعد .

فارجو منك ان تتلطّف وتكون معهما في ضيافتي هذه الليلة.

ثم تناول يده فلم يمانع . وسار الجميع الى بيت مصطفى آغا فتناولوا ما سدَّ جوعهم وتحوّلوا الى ردهة السهرة ، فقال الآغا :

— اذا اذن الشيخ غانم ، فان النساء في الحرم ينتظرنَ السيدة فتقيم معهنّ قليلًا ، فيتعرّفنَ اليها ويسلّينها.

فشكره غانم واشار الى بدور فسارت الى ردهة النساء فاستقبلنها بكل لطف ، واقبلنَ يعزّينها بكل ما في قلوبهنّ من عواطف.

وعند الساعة الثالثة ، استأذن غانم من مضيفه بالانصراف فوقف هذا ورافق ضيوفه حتى المنزل . ثم حيّاهم وكرّر التعزية والوصية ، وانقلب آسفًا لما جرى.

* * *

من الصعب وصف مشهد الثلاثة ذاك الليل ، اذ كانت بدور تخبر غانمًا تفاصيل وفاة امّها بصوت تقطّعه الزفرات فيجاوبها هو بالنشيج ، ويبكي فرحات صامتًا . الى ان بلغ الجهد من الثلاثة ، فدخل كلٌ الى غرفته ونام نومًا ثقيلًا حتى الفجر.

عرف الجزّار ، في اليوم الثاني ، بمصيبة غانم وبقدوم خطيبته . فارسل للحال كاتبه عبدالله آغا لتعزيته ، واوفد احدى نساء حرمه مع جاريتها لتعزية بدور . فشكر له غانم هذ التنازل.

وما لبث الخبر ان انتشر في البلاط وفي المدينة . وكان لغانم اصدقاء كثيرون ، فاقبلوا يعزّونه ويحيّونه بجميع اساليب السلوان . وكثيرًا ما كان يأتي نساء الموظفين ايضًا فتستقبلهنّ بدور في حرم مصطفى آغا.

وكان ممن اقبلوا التعزية بعض تجار الافرنج ، يتقدّمهم راهب فرنسيسكاني عرفه غانم في احدى قيساريات الحرير ، اسمه الاب توما . فقدّم لغانم اخلص عواطفه ، وعرض عليه ان يحتفل بقدّاس وجنّاز عن نفس الفقيدة يحضرهما جميع المسيحيين ، فشكر له غانم هذا الفضل . وعيّنا لذلك يوم خميس الصعود سنة ١٧٩٦.

غصّت الكنيسة في اليوم المذكور باصحاب غـانم من الافرنج والوطنيين ، وكان في مقدّمتهم عبدالله آغا نائباً عن الجزّار ومصطفى آغا . وكان غانم جالساً في الوسط على مركع خشبي ، والى جانبه عن اليمين بـدور وقد لبست حبرة سوداء ، وغطّت وجهها بيديها مفكرة بما صارت اليه من اليُتم ، والتغرّب . امّا هو فلم يكن بامكانه جمع افكاره اثناء الذبيحة الالهية ، بل كان يحوم بمخيلته حول دير القمر وبعذران يراجع في نفسه ما احاق به من البلايا في هـذه المدّة الاخيرة من حبسه في عكا ، الى وفاة جدّه مقهوراً ، الى مقتل المير جهجاه ، الى وفاة الست سعدى حزناً على زوجها ، الى تبدّد ارزاقه وارزاق بـدور ، الى تضعضع الحزب السياسي الذي طالما رجع الاحزاب اللبنانية جميعها .

كل تلك الخواطر كانت تنشب في ذهنه وتضطرب متشابكة . ثم يلتفت فيرى الكاهن غارقاً في صلاته فيسلّم لمشيئة الله . ولكن لا يلبث ان يحوّل وجهه الى جهة بدور ، فيراها وقد جلّلها السواد ، آية الحزن وعنوان الاسى ، فيعود بافكاره المضطربة الى حالتها وما سيخبئ لها وله القدر المشؤوم .

وما زال على تلك الحالة من الاضطراب يبدأ بالصلاة فيشرد فكره بعيداً ، ويهمّ بالتأمل في الذبيحة الالهية فلا تطاوعه هواجسه ، حتى انتصف القداس ، ودار الكاهن ليقرأ الانجيل بالعربية ، فوقف الجميع ، وارهفوا آذانهم ، واذا به يقرأ :

« الحقّ الحقّ اقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بمن أرسلني لـه الحياة الابدية ، ولا يصير الى دينونة . لكنه قد انتقل من الموت الى الحياة . الحقّ الحقّ اقول لكم إنها تأتي ساعة ، وهي الآن حاضرة ، يسمع فيهـا الاموات صوت ابن الله والذين يسمعون يحيَون . لأنه كما ان الآب له الحياة في ذاته ، كذلك أعطى الابن ان تكون له الحياة في ذاته . وأعطاه سلطاناً ان يُجري الحكم بمـا انه ابن البشر . ولا تتعجبوا من هذا لانها تأتي ساعةٌ يُسمع فيهـا جميع من في القبور صوت ابن الله . فيخرج الذين عملوا الصالحات الى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة . »

وبعد الانجيل لفظ الاب توما عظة صغيرة ملؤها عواطف التعزية والاتكال

على الله ، حفظ منها غانم قول المسيح : « مَن آمن بي ، وان مات ، فسيحيا » فتعزّى بذلك عن حزنه الشديد اذ كان له ملء الثقة بقول السيد له المجد ، وكان يعلم ان كل موتاه كانوا من اخلص المؤمنين ، واوفرهم غيرة على دينهم . . . ثم التفت الى بدور فرأى على وجهها دلائل الطمأنينة والصبر ، فزادت تعزيته ، وبارك اسم الله شاكرًا له النعم التي يهبها على قدر المصائب .

## الفصل الحادي عشر

### عرس غريبين

كالمهر الاصيل العتيّ يروضه الفارس الجبّار راكضاً اياه في الفلوات المقفرة ، تحت اشعة الشمس المحرقة ، بين الغبار المتكاثف ، فيذلل جموحه ، ويخفف من غلوائه ؛ فيرجع منهوكاً لبّاً يجرّر حوافره على الارض اللينة ، ويستقبل نسيم المساء الرطب بمنخرين أدمتهما السموم ، ولكنه لا يزال يلمع في عينيه نور الخيلاء ، وفي رفعة رأسه آثار الاصل الكريم .

كالنخلة الباسقة السحوق على حدود القفر المحرق ، تحمل عليها العواصف فتلويها ، وتنقضّ عليها الامطار فتبللها ، ويتصاعد حولها الغبار فيحجبها عن ابصار الناظرين ؛ على انها لا تلبث ان تتخلص من تلك النوائب ، واذا بها مهشمة الاطراف ، مشقّقة الاوراق ، ولكنها لا تزال شامخة الرأس على توالي الخطوب .

هكذا ظهرت لغانم ابنة الامراء ، وقد تراكمت عليها المصائب فأدمت قلبها الحسّاس ولكنها لم تكدّر عقلها المنير ، وقصمت ظهرها ولكنها لم تحنِ رأسها ، وذهبت بما كان في حركاتها من ظرف لطيف ، ودلال جذّاب ، ولكنها ابدلتها به خبرةً ورزانة وهيبة . فكان غانم كلما فكّر بها ظهرت له الفضيلة المرزأة ، والايمان الصابر المستسلم ، والجمال الذي زاده الحزن وقارًا ، والذكاء الذي اكسبه الاختبار تعقّلًا واصالة رأي .

(لها بقية)